

الدراما.. ودورها المأمول في دعم القدس الشريف

أحمد نور الدين

إعلامي وكاتب صحفي مصري ومدير تحرير في صحيفة الأهرام

في اللغة الإغريقية القديمة، تعني كلمة دراما «العمل»، كما تعدّ الدراما تجسيداً بارزاً لطرح القضايا الاجتماعية، والتاريخية الوطنية، بصورة واقعية، ووصفاً لحالات الإنسان المختلفة، وانعكاساً جيداً لما يجول في داخله من مشاعر تسكنه تجاه الأمور المختلفة التي يتعرض لها.

وإحفاً للحق، لا يُشبع شهيتي العقلية، ولا يروي ظمئي الفكري إلاّ الدراما التاريخية الموثقة التي تعرض جانباً من تاريخ أمتنا الحقيقي الموضوعي، أو تكشف وتميط اللثام عن إسلامنا الراقي بأخلاقه، ومبادئه، وقيمه، أو تعرض جانباً من سيرة عظماء قادة ومفكري الأمة، الذين كان لهم شأن وباع كبير، في ميدان الجهاد الترسخي لتاريخ أمتنا وحضارتها وفتوحاتها، والمحافظة عليه من عبث العابثين وكيد الكائدين الماكرين من أعدائها المتربصين بها وبمواطنيها في الأزمان والأمكنة المختلفة.

في التاسع من فبراير/ شباط العام الفائت، كتبت مقالاً في بوابة الأهرام تحت عنوان «عندما توظف الدراما لخدمة الإسلام»، إشادة بالفيلم الهندي «اسمي خان»، الذي استوقفني إعجاباً، مشدوهاً بإنتاجه الدرامي الضخم الذي قام ببطولته النجم الهندي شاه روك خان، والممثلة لكاجول، والذي أنتج العام 2010، حاصلاً على كمّ من الجوائز العالمية والمحلية

العديدة التي نالها، لأفضل ممثل، وأفضل ممثلة، وأفضل مخرج، وأفضل قصة، تقديراً وتميزاً لإجادته في محاولة تغيير الصورة النمطية المأخوذة ظلماً وبهتاناً وزوراً عن الإسلام والمسلمين في كل بقاع البسيطة، منذ حادث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 2001 في الولايات المتحدة الأميركية، وقبله وحتى الآن،⁽¹⁾ وها أنذا أعود كاتباً عن تلك القضية الجوهرية «الدراما في خدمة قضايانا والتعريف بها»، التي يستطيع مبدعوننا، الفنانون والكتّاب، والمخرجون أن يوظفوها أحسن وأجود توظيف، توثيقاً لقضايانا، وتعريفاً بها، ودفاعاً عنها، وكشفاً للنقاب عن حقيقتها، وتوضيحاً للمارسات أعدائنا تجاه ديننا وفكرنا وحضارتنا ورموزنا التاريخية عبر مختلف العصور.

لعل من قضايانا المصرية التي تحتاج المساندة المختلفة من جميع فئاتنا المهنية العربية وغيرها، وعلى رأسها صناع الدراما والإعلاميون، القضية الفلسطينية، وقدسنا الشريف، وأقصانا المبارك، وأراضينا الطيبة المغتصبة، وأهلنا المشردون، والمعتقلون في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وهنا يلح على فكري وعقلي الجمعي عدة تساؤلات، هل تستطيع الدراما العربية ذلك؟، وكيف تحقق النجاح فيها؟ وهل سبق للدراما العربية وغيرها تناول تلك القضية الرئيسة الجوهرية لأمتنا؟

عندما أتناول الإجابة عن سؤال الأول، أراني مؤكداً: نعم تستطيع الدراما العربية وغيرها أن تعرض لقضايانا الإسلامية والتاريخية عامة، ولقضية فلسطين وقدسنا الشريف، وأقصانا المبارك خاصة، وكم أجدني مستمتعاً - رغم شجني العميق من نهايته المعروفة مقدماً - بمشاهدة المسلسل الدرامي التاريخي «السلطان عبد الحميد الثاني»، الذي يعرضه من حقائق لدسائس الغرب واليهود، ومؤامراتهم وفرضهم عليه بيع الأراضي الفلسطينية لليهود، ومحاولات الزعيم الصهيوني «تيودور هرتزل» ومن عاونه في ذلك.

من هنا كان للدراما العربية دور حثيث في دفاعها عن قدسنا الشريف والقضية الفلسطينية، ومعاناة إخوتنا على أراضيها من الاحتلال الإسرائيلي، وتأريخاً لهذا الدور المثلث والمقدر، أسجل أنه كان هناك العديد من المسلسلات والأفلام الدرامية والوثائقية التي تذود عن قضايانا تلك، منها المسلسل التلفزيوني «أنا القدس» الذي يرصد مأساة الشعب الفلسطيني في مدينة القدس وتاريخها، منذ العام 1917 مع بداية احتلال المدينة من قبل الجيش البريطاني في أواخر الحرب العالمية الأولى، وبداية الانتداب البريطاني على فلسطين، وصدور وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود فيها، وتنتهي أحداث المسلسل بحلول عام 1967

حين سقطت مدينة القدس كلها في يد إسرائيل التي كانت تسيطر على الجزء الغربي من المدينة منذ عام 1948، تناول المسلسل مدينة القدس في تلك الفترة بكل ما يتعلق بجوانبها النضالية والسياسية والاجتماعية والأدبية في خط درامي يواكب ظهور شخصيات بارزة في تاريخ فلسطين الحديث.

المسلسل إنتاج سوري - مصري مشترك، تأليف باسل الخطيب وشقيقه تليد الخطيب، وبطولة نخبة من ممثلي سوريا ولبنان ومصر والأردن والعراق، وعرض في رمضان العام 2011، وحاز على جائزة مهرجان «زهرة المدائن الرابع للإبداع الثقافي من أجل القدس» الذي أقامه ملتقى المثقفين المقدسي، بالتعاون مع جامعة القدس كأفضل مسلسل عربي عن القدس.⁽²⁾

في الثالث والعشرين من يوليو/ تموز من العام الحادي عشر وألفين، قدمت المخرجة الفلسطينية ساهرة درباس في فيلمها «عروسة القدس» تصويراً شاملاً للحياة الاجتماعية في مدينة القدس، عبر جزأين انقسم لهما الفيلم، الأول يشمل الحياة الحقيقية للكثير من المتطوعين الذين شاركوا بالتمثيل فيه عرضاً لحياتهم الشخصية والاجتماعية في المدينة المقدسة، عبر أزقتها وأماكنها المقدسة، والثاني كان وثائقياً شمل لقطات حية لما تعانیه القدس وأهلها في ظل الاحتلال الصهيوني، وحاجتهم القصوى للدعم.

وفي الثامن والعشرين من أبريل/ نيسان العام 2017، وبمناسبة إعلان القدس عاصمة للإعلام العربي للعام 2017، كتبت نجوى الحيدري: نظمت الدورة 18 من المهرجان العربي للإذاعة والتلفزيون التونسي تظاهرة؛ أطلقت عليها اسم «يوم القدس» بحضور عدد من المخرجين والإعلاميين والخبراء العرب، تناولت الندوة في محاورها الكبرى، صورة القدس وتجليات مكانتها التاريخية والدينية في الإنتاج الدرامي العربي السمعي البصري، ودور الدراما الإذاعية والتلفزيونية العربية وإسهامها في كسب معركة التهويد الديني والثقافي للمدينة المقدسة، ومستقبل أداء الدراما العربية في مواجهة تصاعد الاستيطان وانتهاك المقدسات.

وتحدث فيها الكاتب علي الدب مؤلف العمل الدرامي الإذاعي التونسي «القدس أرض الفردوس»، الذي أنتج العام 2000، هادفاً منه نفص الغبار عن هذه المدينة العتيقة، ومنذ سقوط القدس على يد الصهاينة توالى تصريحاتهم في ملكية هذه الأرض والاستناد إلى نصوص توراتية عفا عليها الزمن.⁽³⁾

أيضاً كان مسلسل «باب العامود»، وإبرازه لحالة الحظر الإسرائيلي التي يُمني بها المقدسيون وتمنعهم من زيارة القدس العتيقة، والكشف عن جوهر الحياة الاجتماعية في المدينة المقدسة، وما يُعانيه أهل القدس من شظف العيش وتراكم الضرائب، ناقلاً المشاهد بواقعية لأزقة البلدة القديمة وحواريها، التي يحكي كل حجر فيها حكاية صمود وتحدٍّ، ثم المسلسل الدرامي «الأغراب» الذي عُرض في رمضان 2016، متناولاً الاحتلال الذي سرق الأرض، فكان اسمه «الأغراب» تعريفاً بالمحتلين الذين لا ينفكون عن النيل من المواطن الفلسطيني في حياته وأرضه وبيته.

في السابع من سبتمبر العام 2016 وتحت عنوان (8 مسلسلات درامية تجوب بك الأراضي الفلسطينية) ذكرت الكاتبة «محاسن أصرف» أنه على مدار الأعوام العشرين الماضية تمكنت الدراما من أن تخرق الوعي الفلسطيني عبر الشاشة الفضية الرسمية «تلفزيون فلسطين» على الصعيد المحلي، وما لبثت أن تطورت من حيث الإمكانيات المادية والفنية لتتمكن من اختراق وعي المشاهد العربي عبر بث القضية الفلسطينية والمقدسية في قوالب درامية تُعرف بالحياة وكيونة الأشخاص الذين يعيشون في وطن السلام بلا سلام.⁽⁴⁾ فذكرت من تلك الأعمال: مسلسل «الأخوة الغرباء»، أول عمل من إنتاج التلفزيون الفلسطيني العام 1998، جامعاً فنانين من فلسطين والأردن، كتب القصة والسيناريو والحوار الراحل بشير الهواري وأخرجه حسيب يوسف، وحظي المسلسل بنسب مشاهدة عالية نتيجة للطابع الاجتماعي الذي تميز به المسلسل، ومسلسل «مطب» الذي أتجه المركز الفرنسي الألماني العام 2008 وعرض خلال شهر رمضان من العام ذاته، والذي يُصوّر تفاصيل الحياة اليومية للفلسطينيين في الأراضي المحتلة بطريقة كوميدية لا تخلو من قصص الحب.

ومسلسل «وطن ع وتر» الذي كان تم إنتاجه العام 2009، وكان بمثابة نقطة تحول في الدراما الفلسطينية، وفي تلفزيون فلسطين الرسمي، لتمييزه بالجرأة في انتقاد الواقع الفلسطيني على كل المستويات السياسية والاجتماعية والثقافية، ثم مسلسل «الروح»، الذي أنتج وصُوّر في بيئة قطاع غزة العام 2014، مبرزاً الحالة الملحمية للمقاومة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة معاً، وارتباط وامتزاج روح المقاومة والثورة بينهما.

كذلك مسلسل «الفدائي» بجزأيه الأول والثاني، وكان مبهرًا في إعطاء الصورة الحقيقية لواقع الحياة الإنسانية والمعاناة الأزلية التي يُقاسيها الشعب الفلسطيني منذ عام 1948، متناولاً ما يحدث في مدينة الخليل من عمليات تهويد وسرقة للأرض وتنكيل على الحواجز،

أما الجزء الثاني، فعرض لقضية الأسرى والأسيرات، فاستطاع أن يُعرّف المشاهد العربي بأدق تفاصيل الحياة اليومية التي يعيشونها في السجون، ويفضح ممارسات الاحتلال في تعذيب الأسرى وإذلالهم.

أيضاً لم تغب الدراما العربية عن تجسيد واقع القضية الفلسطينية وقدسنا الشريف، ومعاناة أهله، وإبراز عظيم دور قادتها وفدائيتها، فأخرجت الكثير من الأعمال الدرامية التي تحكي هذا الواقع، وتحت عنوان «القضية الفلسطينية في الدراما العربية»، تقول الكاتبة «وفاء الحكيري»: لم تغب القضية الفلسطينية عن الدراما العربية، خاصة في الإنتاج السوري والفلسطيني الذي منحنا أعمالاً خلّدت فصولاً من مأساة الشعب الفلسطيني ونضاله ضد الاحتلال والظلم، ومن أبرزها المسلسل السوري «عز الدين القسام» الذي يعدّ من أوائل المسلسلات الدرامية وتم تصويره العام 1981م متناولاً القضية الفلسطينية في بداياتها، راوياً ثورة المجاهد عز الدين القسام ضد الاحتلال البريطاني الصهيوني في فلسطين، وانتهاءً باستشهاده.

كذلك مسلسل «التغريبة الفلسطينية»، حيث صور العام 2004، وأخرجه المخرج السوري حاتم علي، وفيه عكس معاناة الفلسطينيين قبل وبعد النكبة، مصوراً العلاقات الأسرية تحت الاحتلال الغاشم وافتكاك الأرض والترحيل القسري، وعُدّ المسلسل من أفضل الأعمال الدرامية.

أيضاً كان مسلسل «الاجتياح»، الذي يصور عمليات اجتياح قوات الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية ولمخيم جنين برام الله، العام 2002، من إنتاج المركز العربي للإنتاج الإعلامي - الأردن، ومن إخراج المخرج التونسي شوقي الماجري، وحصل المسلسل على جائزة إيمي العالمية عن فئة المسلسلات الطويلة من بين خمسمائة مسلسل عالمي.⁽⁵⁾

كذلك لم تكن الدراما التركية بمنأى عن القضية الفلسطينية، إذ كانت إسهاماتها جليلة، حيث أذكر منها عملها الكبير مسلسل «صرخة حجر»، وهو الاسم العربي للمسلسل التلفزيوني التركي الذي يحمل اسم «الانفصال: فلسطين في الحب والحرب» بالتركية، الذي أنتج في الثالث عشر من أكتوبر/ تشرين الأول العام 2009، وأذيع لأول مرة على القناة التركية، وأثار غضب الحكومة الإسرائيلية التي قالت إن المسلسل يعدّ تحريضاً خطيراً ضدها، واستدعت السفير التركي للاحتجاج، وفقاً لـ«ويكيبيديا الموسوعة الحرة».⁽⁶⁾

وثمة عدد من الأفلام المصرية تناولت القضية الفلسطينية، ومدينة القدس الشريف، منها الفيلم الدرامي المصري «أرض السلام» الذي أنتج العام 1957 وأخرجه الراحل كمال الشيخ، وقام ببطولته الفنانان عمر الشريف وفاتن حمامة، وفيلم «الله معنا»، الذي أنتج العام 1955، من إخراج أحمد بدرخان، وتأليف إحسان عبدالقدوس، وقام ببطولته فاتن حمامة وعماد حمدي وماجدة، وفيلم «الأقدار الدامية»، أنتج العام 1982 بطولة نادية لطفي ويحى شاهين وأحمد زكي وسيد علي كويرات وفاطمة بلحاج، وأخرجه خيرى بشارة، وسيناريو وحوار الجزائري علي محرز.

أيضاً فيلم «أصحاب ولا بنس»، أنتج العام 2001، وقام ببطولته مصطفى قمر، وهانى سلامة وعمر وواكد، وفيلم «باب الشمس»، أنتج العام 2004، وقام ببطولته باسم سمرة وطلال الجردى وعماد اليتيم، وفيلم «عيون حرامية»، أنتج العام 2014، وقام ببطولته خالد أبو النجا، ونسرين فاعور.

كما كان هناك حضور متميز للأفلام الوثائقية لعدد من المخرجين والروائيين العرب والأجانب والفلسطينيين، مجسدة أيضاً القضية الفلسطينية، وما يدور في فلكها من أوجاع وآلام يعيشها إخوتنا الفلسطينيون، أذكر منها: سلسلة أفلام «النكبة»، بأجزائه الأربعة التي أخرجتها روان الضامن، وأنتجتها شبكة الجزيرة، والتي تعرّف المشاهد على مفهوم النكبة الفلسطينية، وكيف نشأ مصطلح «القضية الفلسطينية».

وسلسلة أخرى مكونة من خمسة أجزاء تحت عنوان «أصحاب البلاد»، للمخرجة ذاتها تتحدث عن تبقى من الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، أي من سمّوا بعرب 48، كذلك الفيلم الوثائقي «جنين»، الذي أنتج العام 2002 للمخرج محمد بكري، مصوراً فيه ما حدث للفلسطينيين في مذبحه مخيم جنين على يد قوات الاحتلال الإسرائيلي الغاشم.

صفوة قولي إن الدراما عموماً تستطيع أن تفعل، لآعبة على دغدغة مشاعر المشاهدين، ومخاطبة العاطفة، والدراما العربية خاصة، تستطيع هي الأخرى ذلك بالحقائق التاريخية، وإعاشة المشاهد أجواء تلك الحقب الزمنية بكل أبعادها تفصيلاً حقيقياً، وانفتاحها على العالم أجمع، ليس على المحيط العربي فحسب، جنباً إلى الاستعانة بكتّاب ومخرجين وفنانين مهرة كبار يستطيعون تجسيد تاريخنا، تجسيداً حياً مؤلفاً - كما تفعل الدراما السورية والتركية - قبل كونه مصوراً، لأن «مصير القصص التي لا نحكيها، أنها تصبح ملكاً لأعدائنا»، كما يقول الكاتب والروائي الفلسطيني إبراهيم نصر الله.



الهوامش:

- (1) - "عندما توّظف الدراما لخدمة الإسلام" .. مقال للكاتب نشر ببوابة الأهرام بتاريخ 9-2-2018
- (2) - فلسطين اليوم - رويترز - بتصرف
- (3) - جريدة الشروق التونسية - النسخة الورقية بتاريخ 25-4-2017
- (4) - موقع إضاءات الإلكتروني - بتصرف
- (5) - "القضية الفلسطينية في الدراما العربية" - للكاتبة "وفاء الحكيري" - موقع "ميم مجلة المرأة" في الخامس عشر من ديسمبر العام 2017.. بتصرف
- (6) - ويكيبيديا الموسوعة الحرة.